عمارة المشرق العربي

د. جورج عربيد

تضمّ منطقة المشرق العربي الأردن ولبنان وفلسطين وسوريا. في حوالي العام ١٩١٤، كان مصير هذه المنطقة بالذات، التي كانت على مشارف الخروج من تحت نير الإمبراطورية العثمانية، يُرسم انطلاقًا من واقعَين: اتّفاق سايكس-بيكو (عام ١٩١٦) الذي مهّد لمناطق النفوذ بين البريطانيين والفرنسيين من جهة، ووعد بلفور (عام ١٩١٧) من جهة أخرى وقد أعدّ لإنشاء إسرائيل. عقب الحرب العالمية الأولى، وُضعت سوريا ولبنان تحت وصاية الانتداب الفرنسي بداية العام ١٩٢٠، في حين أنّ الأردن، الذي من شأنه أن يصير دولة في العام ١٩٦٤، وفلسطين، أصبحتا تحت الحكم البريطاني.

وتطوّر تاريخ البلدان الأربعة في اتّجاهات سياسيّة طبعت ناسها وعمارتها بأشكال مختلفة. ومن الجليّ أنّ النكبة التي شهدتها فلسطين مع إنشاء دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨ من ناحية، والاختلاف في الأنظمة السياسية القائمة في الدول أخرى من ناحية ثانية، ساهمت كلّها في إعطاء العمارة في كلّ منها شكلًا مختلفًا.

لبنان

نظرًا إلى موقع البلد الجغرافي، وإلى مختلف الحضارات والثقافات التي مرّت به أو استقرّت فيه، يمكن وصف العمارة في لبنان على أنّها خلاصة تأثيرات عديدة. ففي هذا البلد الذي يقع على مفترق طرق، ساهم الدفق متعدّد الاتّجاهات، وهو دفق الناس والسلع والأفكار والممارسات الثقافية، في تشكيل العمارة وإغنائها من نواحٍ عديدة.

ثمّة قاسم مشترك، بدءًا بالعمارة التقليدية وصولًا إلى العصر الحديث، وهو الإرادة الثابتة لاستيعاب الجديد وتضمينه، سواء من حيث الأساليب الإنشائية أو الابتكار الثقافيّ. وقد شجّعت هذه الرغبة في الحداثة قيام ثقافة معماريّة تميّزت بشكل ملحوظ بالقدرة على التكيّف والخلق، ما أدّى إلى ظهور الصناعة الحرفيّة الماهرة وتطوير مهارات مختصّة.

في مطلع القرن العشرين، كان روّاد العمارة مهندسين يعملون لدى السلطات العثمانية، ومعماريين جاءوا ضمن بعثات أثريّة في عهد الانتداب الفرنسيّ، ومهندسين حصّلوا تعليمهم في لبنان وتابعوا الدراسة أو التدريب المعماريّ في الخارج. وتمّ بعد الاستقلال في العام ١٩٤٣، إنشاء العديد من المدارس المحلّية للهندسة المعماريّة، بدءًا بالأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة، وأبقت جميعها العلاقات قائمة مع المؤسّسات الأجنبية.على هذا النحو، بانفتاحها على مصادر متنوّعة وخبرات مختلفة، باتت العمارة في لبنان متعدّدة الأوجه.

و ثبت مع مرور الوقت، أنّ أفضل الأمثلة هي تلك التي استجابت على نحو مناسب إلى ممارسات العيش المحلّية، سواء كانت الداخليّة أو الخارجيّة، والتي تعاملت مع الظروف المناخية، وسلكت درب الابتكار مستجيبة لنهج التطلّع إلى الحداثة.

عمارة الانتداب من العشرينات إلى الثلاثينات

خلال الانتداب الفرنسي على لبنان (١٩٢٠ – ١٩٤٣)، تطوّر نمط استشراقيّ ارتبط بدلالات فنّ «الآرت ديكو»، في وسط مدينة بيروت على وجه الخصوص. تقف هذه المباني متراصفة بدقّة، وقائمة بارتفاع محدّد، متناسقة مع الأروقة ذات القناطر، وقد بُنيت من الحجر الأصفر المحلّي المشغول باحتراف، وضمّت شرفات مزدانة بدرابزين حديديّ متقن الصنع. وخير دليل على هذا الطراز هي المباني في منطقة فوش – اللنبي، التي صمّمها وبناها عدد من المهندسين والمعماريين المحلّيّين أمثال يوسف أفتيموس، بهجت عبد النور، إلياس المرّ وفريد طراد.

روّاد العمارة الحديثة

فندق السان جورج الذي صمّمه المعماريون الفرنسيون بواريه ولوت وبورد إلى جانب المهندس المعماريّ اللبناني أنطوان تابت، يُعتبر مبنىً رائداً من ذلك الوقت (١٩٣٢). وسرعان ما تحوّل هذا الفندق وهيكله الخرسانيّ، وتصميمه المباشر البسيط، وأفقيّة خطوطه، إلى علامة فارقة في سجّل الثلاثينات المعماريّ. وفي العام ١٩٣٥، كان مبنى إبراهيم سرسق من تصميم عبد النور، مبنى المكاتب الأوّل من نوعه، وقد شُيّد حول فناء، وتميّز بمعالجة واقعيّة أفقيّة للفتحات، وبكتلة بارزة جريئة خالية من الزخارف.

الأربعينات

بعد قيام مصنع الإسمنت الأوّل في لبنان في العام ١٩٣١، تميّزت أربعينات القرن بتحوّل تقنيات البناء إلى الخرسانة، وتخلّيها التدريجي عن الحجر.

إلى ذلك، شهدت المنازل ذات الدار الوسطي تغيّرات عديدة، على الرغم من نجاحها في الاستمرار حتّى أواخر الأربعينات. وفيما حلّت الخرسانة محلّ الحجر في نهاية المطاف كمادّة بناء رئيسيّة، أسفرت هذه العملية التدريجية عن فترة غنيّة من تعايش الأنماط وشهدت تبسيطًا في التفاصيل.

خمسينات القرن وستّيناته

تُعتبر خمسينيات القرن العشرين وستّيناته السنوات الشاهدة على نضوج العمارة الحديثة التي تطوّرت ببطء منذ الانتداب الفرنسيّ. وما أن تمّ إرساء أسس الليبرالية والمشاريع الخاصّة بعدما نال لبنان استقلاله (١٩٤٣)، تطوّر قطاع الخدمات بسرعة، فصارت بيروت مركزًا إقليميًّا رئيسيًّا للتجارة والخدمات المصرفية، وصناعة الإعلان، والنقل الجوّي والبحريّ والبرّي، والاتّصالات والسياحة.

وبفضل النظام الديمقراطي السائد في لبنان، راحت بيروت تجذب الفنّانين والمثقّفين من مختلف أنحاء العالم العربي، في خطوة عزّزت التبادل الثقافيّ، فما كان من النشاط الثقافيّ العام إلّا أن شكّل حافزًا اختبارياً للعمارة. خلال هذه الفترة المزدهرة، عكست المباني الخاصّة كما الحكوميّة توقًا عامًّا إلى الحداثة.

من هذه الأبنية نادي خرّيجي الجامعة الأميركيّة، وهو ثمرة تعاون بين المعماريّ البولنديّ كارول شاير والمهندس اللبناني بهيج مقدسي والمعماري اللبناني واثق أديب، وهو عبارة عن مبنى وظيفيّ واضح المعالم يذكّر بأعمال شاير الأولى في بولندا. وتابع الفريق ذاته إنتاج العديد من المباني المتميزة على كورنيش الروشة، مثل فندق كارلتون، الذي بُني بين العامين ١٩٥٥ و١٩٥٧.

كذلك، أثبت التعاون بين المحترفين الأجانب واللبنانيين عن نجاح مثمر عندما صمّم المعماريّ الأميركيّ إدوارد د. ستون فندق فينيسيا (١٩٥٤ – ١٩٦١) إلى جانب فردينانند داغر ورودولف الياس. وسرعان ما أصبح هذا المبنى الأنيق، الذي عكس تناغمًا مع روح العصر بقدر ما كان مصمّمًا لينسجم مع المكان، رمزًا للأسلوب المعماريّ الدوليّ المتكيّف مع المناخ المتوسّطي. وسواء في إطار تعاون ظرفيّ أو في شراكات دائمة، كان المهندسون والمعماريون المحليون أكثر من مجرّد أفراد داعمين لشركائهم الأجانب، فساهموا إلى حدّ كبير في صنع العمارة الحديثة. فقد كانوا على صلة بالهيئات الإدارية، و خبراء في شبكات الممارسة والخبرة وفي وسائل الحصول على الموادّ، وكانوا معماريّين ممارسين يديرون مكاتبهم الخاصّة قبل تعاونهم مع الأجانب.

مثال آخر على هذا النوع من الشراكات هو فندق هوليداي إن الذي صمّمه وبناه المعماري اللبنانيّ موريس هنديه مع الفرنسي أندريه فوغنسكي بين عامي ١٩٦٥ و١٩٧٤. أمّا المعماريّ والمخطّط الفرنسيّ ميشال إيكوشار، فقد عقد شراكة مع معماريّين محلّيين وساهم في نشر نموذج محليّ للعمارة الحديثة لا يتعارض والتراث المعماري المحلّي. فكما ظهر في العديد من مبانيه، رافق فكرة تبنّيه للعمارة الحديثة فهمٌ للظروف المحليّة المتعلّقة بموادّ البناء وتقنياته والاستجابة المناخية والممارسات المحلّية.

وقد نتجت عن الاستجابة العقلانيّة للظروف والتوجّهات المناخية المحلّية مجموعة متنوّعة من التصاميم. منها الواجهة الغربية لمبنى مطبعة دار الصياد التي صمّمها فريق شاير-مقدسي-أديب، وأوّل واجهة ستار زجاجي لمبنى «الهورس شو» المواجهة للشمال التي صمّمها الفريق نفسه. وإلى جانب مبنى «الهورس شو»، تطلّ سينما الحمرا ومبنى المكاتب لجورج الريّس كتغاير آخر على الاستخلال الأمثل للضوء بفضل توجيه المبنى إلى الشمال.

من جهة أخرى، تنعكس الجودة المدينيّة في مبانٍ كمركز صباغ التجاريّ الذي يضمّ سينما ومكاتب، وقد صمّمه ألفريد روث وألفار ألتو في العام ١٩٦٧ وافتُتح في العام ١٩٧٠. والمميّز في هذا المبنى أنّ تصميمه يحرّر زاوية الشارع لقطعة الأرض ما يشكّل ساحةً يستخدمها المشاة. تم تنفيذ المشروع، على غرار العديد من المشاريع الهامّة، بالتعاون مع مجموعة من المستشارين والفنيين والمشرفين اللبنانيّين. تطول قائمة الأمثلة الناجحة عن تلك الفترة وتشمل مركز ستاركو من تصميم وتنفيذ الشركة السويسرية «أدور وجوليار» بين عامي ١٩٥٥ و١٩٦١، وهو مركز تجاريّ حديث ومتطوّر يضمّ مكاتب، وقد ضُم المستويان الأرضي والوسطيّ لإضفاء طابع «الأسواق» عليهما.

يجسّد نتاج جوزيف فيليب كرم الوافر دفقًا من التصاميم المتحرّرة، تُظهر استخدامًا مكثّفًا للألوان ومجموعة واسعة من الموادّ. في العام ١٩٦٨، صمّم كرم في وسط المدينة مركز صمدي – صالحة، وفيه مسرح مميّز بشكله البيضاوي. ولم يكن هذا الشكل الصعب ليُنفّذ لولا مجموعة من النجّارين الذين كيّفوا مهاراتهم لينتقلوا الى مهنة « نجّاري قوالب الخرسانة ». من الأسطح الأنيقة أيضًا سقوف المصانع ونذكر على وجه الخصوص مصانع التبغ المؤمّمة كمصنع الخازية (١٩٦٣ – ١٩٦٦)